فحاز كمال الخلق بالسكينة والطلاقة وحسن القبول وميل النفوس الى متابعته فالسكينة تبعث على
الهيبة والتعظيم فكان مهابا في النفوس معظما في القلوب حتى ارتاعت رسل كسرى من هيبته حين
راوه مع ارتيادهم بصولة الاكاسرة فكان في نفوسهم اهيب وفي قلوبهم وعيونهم اعظم وارهب وان
لم يتعاظم بابهة ولا تطاول بسطوة بل كان بالتواضع موصوفا وباللين والوطاءة معروفا
فاختصت الهيبة بذاته وارتقت في صورته خرجت عن تصنع البشر وما ذاك الا لامر قد قدر
والطلاقة توجب المحبة الداعية للمودة والمصافاة فكان محبوبا مودودا وقد اشتملت محبته
طلاقة على النفوس حتى مازجت ارواحها وشاكلت اشباحها فكان احب الى اصحابه من الاباء
والابناء وشرب الماء البارد على الظماء وحسن القبول يجذب ميل القلوب فيسرع القليل الطاعة
وينزعن لموافقته ومتابعته وهذا لا يتاتى فيه التكلف والتصنع الا ان يكون مركوزا في الخلقة ومطبوعا
في الصورة فكانت بديهة منظره مستولية على القلوب حتى ملكتها فخلصت له سرائر من صاحبه وصفت
له ضمائر من قاربه ولم ينفر منه متباعد ولم يستوحش منه معاند الا من ساقه الحسد الى شقوته وقاده
الحرمان الى مخالفته فانحرف عنه بقلب حزين وجسد مهين وميل القلوب الى متابعته يوجب انقيادها
الى موافقته وثباتها على شدائده ومصابرته فقد كان اصحابه يفدونه بنفوسهم دفعا عنه وحذرا
ولولا ان القلوب جاذبة والنفوس مايلة لكانت بالحذر احيد ومن التغرير انفر وحسبك
بهذا الميل ان يكون على النفوس مقدما وفي القلوب محكما وحاز كمال الخلق برجاحة عقله وثباته
في الشدائد وزهده في الدنيا وتواضعه وحلمه وحفظه للعهد ووفائه بالوعد فرجاحة عقله دل عليها
صحة رايه وصواب تدبيره فكان يلحظ الاعجاز في المبادي فيكشف عيوبها ويحل خطوبها ويلم شعوبها
ومن تامل تدبيره امور بواطن الخلق وظواهرهم وسياسة العامة والخاصة مع عجيب شمايله وبديع سيره
فضلا عما افاضه من العلم وقرره من الشرع دون تعلم سبق ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب
منه صدرت لم يمتر في رجحان عقله وثقوب فهمه وثباته في الشدائد اشهر شهيد لم يمتر فيه كبير ولا صغير
قد لقي بمكة من قريش ما يشيب النواصي ويهد الصياصي وهو مع الضعف يصابر صبر المستعلي ويثبت
ثبات المستولي روى انس عنه صلى الله عليه وسلم انه قال لقد اخفت في الله وما يخاف احد ولقد اوذيت
في الله وما يؤذى احد وزهده في الدنيا واعراضه عنها وقناعته بالبلغة منها فلم يمل الى نضارتها
ولم يله بحلاوتها فهو مما شاع واشتهر ولم يشك فيه ذو عقل من البشر وحسبك من تقلله منها
واعراضه عن زهرتها وقد سيقت اليه بحذافيرها وترادفت عليه فتوحها ان توفي صلى الله عليه وسلم
ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله وهو يدعو ويقول اللهم ارزق آل محمد قوتا وما شبع
من خبز ولحم مرتين في يوم واحد ولا اكل على خوان ولا اكل خبزا مرققا بل كان اكثر خبزهم خبز الشعير
من غير نخل بالمناخل بل ينفخ فيطير منه ما طار ثم يعجن ولم يمتلئ جوفه شبعا قط ولم يبث شكوى الى احد
يطوي الايام والليالي وكان فراشه ادما حشوه ليف او مسح يثنونه له ثنيتين فينام عليه هذا

و

وقد ملك من اقصى الحجاز الى عذار العراق ومن اقصى اليمن الى شحر عمان فلم يكن زهده في الدنيا عن قلة
بل عن ولا عن العاجل ورغبة في الآجل لانه هو الذي عنده احظى وبه اجل اسمه ارضى وهو وان
تبسط لا ينقص ماله عند الله شيء ولكن تعليما لامته فقد اخبر صلى الله عليه وسلم انه قيل له ان شئت اعطيت
خزائن الارض ما لم يعطه احد قبلك ولا يعطاه احد بعدك ولا ينقصكم في الآخرة شيء قال اجمعوهما لي
في الآخرة فنزل تبارك الذي ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الانهار ويجعل
لك قصورا قال ابن عباس اعطاه الله الف قصر من لؤلؤ ترابهن المسك وفي كل قصر ما ينبغي من
الازواج والخدم وقال ابن عباس ايضا ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل يوما ما امسى لآل محمد كف
سويق ولا سفة دقيق فاتاه اسرافيل فقال ان الله سمع ما ذكرت فبعثني اليك بمفاتيح الارض
وامرني ان اعرض عليك ان احببت ان اسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فعلت
وفي رواية عنه صلى الله عليه وسلم انه قال عرض علي ان تجعل لي بطحاء مكة ذهبا فقلت لا يا رب اجوع يوما
واشبع يوما فاما اليوم الذي اجوع فيه فاتضرع اليك وادعوك واما اليوم الذي اشبع فيه فاحمدك
واثني عليك وفي حديث اخر ان جبريل عليه السلام نزل عليه صلى الله عليه وسلم فقال ان الله يقرئك السلام
ويقول لك اتحب ان اجعل هذه الجبال ذهبا وتكون معك حيثما كنت فاطرق ساعة ثم قال يا جبريل
ان الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له قد يجمعها من لا عقل له فقال له جبريل ثبتك الله يا محمد
بالقول الثابت وتواضعه صلى الله عليه وسلم فلا شبهة فيه ولم يوجد احد فيه يوازيه فكان صلى الله عليه وسلم
يتواضع للناس وهم له اتباع ويخفض جناحه لهم وهو فيهم مطاع يمشي في الاسواق ويجلس على التراب ويمتزج باصحابه
وجلسائه فلا يتميز عنهم الا باطراقه وحيائه فصار بالتواضع متميزا وبالتذلل متعززا يدعى الى خبز الشعير والاهالة
السنخة فيجيب وما هو فاصل فخر ويجيب وكان في بيته يخدم في مهنة اهله فيفلي ثوبه ويحلب شاته ويرقع ثوبه
ويخصف نعله ويخدم نفسه ويعلف ناضحه ويقم البيت ويعقل البعير ويأكل مع الخادم ويطحن معها ويحمل بضاعته
من السوق هذا واشباهه قد كان من شرف اخلاقه وكرم شيمه وهو غريزة فطر عليها وجبلة طبع بها لم تشن فتعد
ولم تخص فتحد وحسبك من ذلك تواضعه لربه جل وعلا فانه خيره بين ان يكون نبيا ملكا او نبيا عبدا فاختار ان
يكون نبيا عبدا فقال له اسرافيل عند ذلك فان الله قد اعطاك بما تواضعت له انك سيد ولد ادم يوم القيامة
واول من تنشق الارض عنه واول شافع صلى الله عليه وسلم وحلمه واحتماله صلى الله عليه وسلم فقد بلغ فيه الغاية وزاد حتى
بلغ النهاية هذا لما عفي مع الاقتدار وصبر على ما يكره مع التمكن من الانتصار تنزه عن طيش يهزه او خرق يستفزه
بل احلم في النفار من كل حليم واسلم في الخصام من كل سليم قد ابتلي بجفوة الاعراب فلم توجد منه بادرة ولم تحفظ
عليه نادرة ولا حليم غيره الا ذو عثرة ولا وقور سواه الا ذو هفوة فقد عصمه الله من نزغ الهوى وطيش القدرة
ان يلحظ بهفوة او عثرة ليكون بامته رؤوفا وعلى الخلق عطوفا قد تناولته قريش بكل كبيرة وقصدته بكل
جريرة وهو صبور عليهم ومعرض عنهم وما تفرد بذلك سفهاؤهم دون حلمائهم بل تمالأ عليه الجلة والدون
فكلما كانوا عليه الام واشد كان عنهم اعرض واصفح حتى قدر فعفى وقهر فغفر وقال لهم حين ظفر بهم عام الفتح

Copyright © King Saud University